الفصل السابع

المُوحّدُون

- محمد بن تومرت المهدي.
- عبدالمؤمن بن علي.
- يوسف بن عبدالمؤمن بن علي.
- يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن (المنصور).
- محمد الناصر.
- يوسف المستنصر.

obeikandl.com

obeikandl.com

محمد بن تومرت المهدي

عندما نتحدث عن الموحدين فعلينا أن نذكر رجلاً كان منطلق قيام هذه الحركة الدينية، ألا وهو محمد بن تومرت المتسمى بالمهدي، وهو من أبناء الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد ولد في سوس جنوب غرب المغرب، وكان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، رحل إلى المشرق وعمره ستة عشرة سنة، ويقال أنه قابل أبا حامد الغزالي بعد إحراق كتبه من قبل علي بن تاشفين زعيم المرابطين فسمعه يقول: «ليذهبن عن قليل ملكه، وليقتلن ولده، وما أحسب المتولي لذلك إلا حاضراً مجلسنا»، وكان ابن تومرت جالساً فقوى طمعه.

والحقيقة أنَّ هذه القصة التي أوردها المراكشي من الأحاجي والخرافات التي يحاول البعض ربطها بالمشاهير لا سيما الفقهاء والصالحين والزهاد، فَعِلْمُ الغيب عند الله وحده جلَّ جلاله.

قام ابن تومرت بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مكة المكرمة والإسكندرية ووجد من ذلك عناءً شديداً، فسافر بالبحر قاصداً المغرب، ويقول ابن خلكان أنه لما وصل المهدية نزل في مسجد مغلق وجلس منه في طاق مشرف على الطريق العام ينظر إلى المارة فلا يرى منكراً من آلة الملاهي أو أواني الخمر إلا نزل إليها وكسرها، فسمع الناس به في البلد فجاؤوا إليه. والتقى ابن تومرت مع رجل يقال له عبد المؤمن يعلم الصبيان، فسأله بن تومرت مساعدته للقيام بدعوته.

ويقال أنَّ عبد المؤمن رأى في المنام كأنه يأكل مع أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، وأنَّ أكله زاد عن أكل أمير المسلمين، ثم اختطف الصحفة من بين أمير المسلمين علي بن تاشفين وانفرد بها، ولقد قص رؤياه على رجل كان يقرأ عليه فقال له: يا عبد المؤمن هذه الرؤيا لا ينبغي أن تكون لك، إنما هي لرجل ثائر يثور على أمير المسلمين يشاركه في بعض بلاده ثم يغلبه بعد ذلك عليها كلها وينفرد بمملكتها، مستبعداً لأن يكون عبد المؤمن هو الثائر.

فكان ما رأى في المنام حقيقة للعيان بعد مدة من الزمن، والله أعلم، وربما تكون هذه أيضاً من ضمن تلك القصص التي طُرِّزَت بها حياة ابن تومرت وعبدالمؤمن، ونسج من الأحاجي حول بداية لقاء ابن تومرت مع عبدالمؤمن، وهذا مالا يقبله عقل ولا يستسيغه فهم.

عندما ذاع أمره كتب بذلك إلى علي بن تاشفين وأحضر للمناظرة فكانت له الحجة الغالبة، فقال أحد الفقهاء لعلي بن يوسف: هذا رجل مفسد لا تؤمن غائلته، ولا يسمع كلامه أحد إلاَّ مال إليه، وإن وقع هذا في بلاد المصامدة ثار علينا منه شر كثير ! وأشار عليه بقتله أو سجنه، فقال علي بن يوسف: علام نأخذ رجلاً من المسلمين نسجنه ولم يتعين لنا عليه حق؟ ولكن نأمره أن يخرج عنا من البلد وليتوجه حيث شاء، فخرج وأصحابه متوجهاً إلى سوس.

كان قرار علي بن يوسف بن تاشفين بعدم قتله أو سجنه صواباً، غير أنَّ إخراجه من البلد كان خطأً جنى ثماره زوال حكمه فلو أبقاه تحت ناظريه كان أسلم له، ولكن لا غالب إلا الله.

نزل في سوس وأخذ في نشر دعوته دون أن يظهر إمْرَةً أو طُلْبة ملك فاجتمع الناس حوله وطلب منهم القيام معه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونهاهم عن سفك الدماء ولم يأذن لهم فيها، وجعل يذكر بالمهدي ويشوِّق إليه وجمع الأحاديث التي وردت في ذكره، فلما استقر في نفوسهم نسبه وصفته ادعى ذلك لنفسه، فبايعوه على ذلك، وقال: أبايعكم على ما بويع عليه أصحاب رسول الله ﷺ، وذكر المراكشي فيما ذكر عنه أنه أشعري المذهب في أكثر المسائل إلا في إثبات الصفات فإنه وافق المعتزلة في نفيها وفي مسائل قليلة غيرها، وكان يبطن شيئاً من التشيع غير أنه لم يُظهره للعامة.

ويبدو أنَّ ابن تومرت أراد أن ينتقل من المهادنة إلى المواجهة، ومن الغزو باللسان إلى الحرب والطعان، فجهز جيشاً عظيماً من أتباعه وأمَّرَ عليهم عبدالمؤمن وقال أنتم المؤمنون وهذا أميركم.

وسار الجيش لمقاتلة المرابطين والتقى الجمعان، فهُزِمَ عبدالمؤمن بن علي وجيشه، وعندما عادوا والخيبة محيقة بهم جعل ابن تومرت يهوِّن عليهم الأمر ويذكرهم أن قتلاهم شهداء وإنما ذهبوا لإظهار السنة، وكثر الداخلون في طاعته، وكان يضرب الناس على مقارعة الخمر بالنعال وعسب النخيل، والضرب بهذه الكيفية لإتيان هذا الفعل لم يكن قائما بالمغرب أو الأندلس.

عبدالمؤمن بن علي

بعد حربه مع المرابطين بنحو سبع سنين مات ابن تومرت فتولى القيادة عبدالمؤمن ابن علي، وكان ما قاله في توليته لعبدالمؤمن بن علي من بعده بعد أن ترحم على الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم وذكَّر الناس بما كانوا عليه من الثبات في دينهم وأنَّ أحدهم لا تأخذه في الله لومة لائم: «فانقرضت هذه العصابة نضَّر الله وجوهها وشكر لها سعيها، وجزاها خيراً عن أمة نبيها، وخبطت الناس فتنة تركت الحليم حيران، والعالم متجاهلاً مداهناً، فلم ينتفع العلماء بعلمهم، بل قصدوا به الملوك، واجتلبوا به الدنيا وأمالوا وجوه الناس إليهم». وأطال في ذلك، والغريب أنه يقول هذا وعلي بن يوسف زعيم المرابطين الذين يعنيهم المهدي قوَّام للَّيل، صوَّام للنهار، جيوشه في الأندلس تحارب النصارى، بعد أن قضى على حكام الطوائف الغارقين في الملذات.

تولى عبدالمؤمن بن علي الأمر لمدة واحد وعشرين عاماً كانت مليئة بالأحداث الجسام وانقضاء عصر وبداية عصر آخر، وكان فصيح الألفاظ، جزل المنطق، محبباً إلى النفس، لايراه أحد إلا أحبه، كما كان في نفسه سريَّ الهمة، نزيه النفس، لايرضى إلا بمعالي الأمور كما قال المراكشي.

وقال عنه بن تومرت:

تكاملت فيك أخلاقٌ خصصت بها ... فكُلَّنَا بك مسرور ومغتبط

فالسِنُّ ضاحكة، والكفُّ مانحةٌ ... والصدر منشرح، والوجهُ منبسط

بدأ ولايته بمواصلة حرب المرابطين، والإصرار على القضاء عليهم، وقد ساعدته الظروف في ذلك، فقد توفي علي بن يوسف زعيم المرابطين وتولى ابنه تاشفين الذي لم تظهر له الدنيا وجهها الوضَّاء، وإنما أبانت كالح وجهها، فكانت سيول غزيرة في طنجة تهدمت على أثرها البيوت ولم يبق إلاَّ القليل، كما شبَّ حريق هائل في فاس فقد على أثره الكثير، وخرج عليه بعض قادته وانضموا للموحدين.

انهـزم المرابطون على يد الموحدين في معركة فاصلـة بينهم، وسـار الجيش الموحدي إلى وهران فدخلها وقتل منها الكثير، وسبى النساء وكأن في فقههم إباحة ذلك، ثم دخل تلمسـان وغيرها من المدن والقرى، ودخل فاس وهدم سـورها منطلقاً من أنَّ الموحدين لا يحتاجون إلى سور فأسوارهم سيوفهم، ثم حاصر مراكش مدة طويلة وفتحها واستباحها ثلاثة أيام وأسر اللمتونيين وغيرهم، ثم اشتراهم عبد المؤمن من الموحدين وعفا عنهم.

وهكذا سالت دماء مسلمة بأيدي مسلمة وسبيت نساء مسلمات بأيدي مسلمين يدَّعون أنهـم للفحش ماقتين، وبحلل الله متمسـكين، وبدأت مأسـاة جديدة بدخـول فكرة دينية جديدة لم يعهدها الغرب الإسـلامي، فقد كان المذهب المالكـي موحداً للناس حامياً لهم من النزاعات الطائفية سـائرين تحت ظله مسـتمدين منه جُلَّ فقههـم، وكان المرابطون في قيامهـم بالأمر داعين للأخـذ بالفقه المالكي نابذين الانغماس في الملذَّات والمعاصـي، مصـححين بذلك سـلوكاً غير مبتدعين مذهباً، ثـم جاء الموحودن بفكر جديد وأسـلوب جديـد بدأوا به المغرب وأرادوا اجتيـاز البحر إلى الأندلس بما حملوه من أفكار وما راموه من ملك ودثار.

أليست تلك مأساة طال لهيبها الأندلس؟

بعـد أن اسـتقر أمـر الموحدين في المغرب، تسـابق حـكام الأندلس لتقديم الـولاء للوافد الجديـد رجاء إبقائهم على ماهم عليه، فقدم الولاء والطاعة لهم ولاة الجزيرة الخضـراء، ورنده، وإشـبيلية، وقرطبة، وغرناطة، ومالقه، بينما بقيت بلنسـية ومرسـية وشرق الأندلس دون تقديم الولاء، وجمع عبد المؤمن جموعه واسـتدعى الشـعراء في سابقة لم يفعلها قبل، في إشـارة على تغير في النهج وتحول من سـلوك التقي الذي أقنع الناس بأن أمره يقتصـر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى رجل يستقبل الشعراء ليمدحوه فيغدق عليهم الأموال.

وممن مدحه الشاعر الأصم المرواني ابن الطليق فقال:

وطـود طـارق قـد حـلَّ الإمـام بـه … كالطور كان لموسى أيمن الرتب

لو يعرف الطود ما عاناه من كرم … لم يبسط النور فيه الكف للسحب

إلى أن قال:

ما للعدا جُنَّة أوقى من الهرب .....

فقال عبدالمؤمن رافعاً صوته: إلى أين.. إلى أين؟

فقال:

..... أين المفر وخيل الله في الطلب

وأين يذهب من في رأس شاهقة وقد رمته سماء الله بالشهب

حدِّث عن الروم في أقطار أندلس والبحر قد ملىء العبرين بالعرب

فلما أتم قصيدته قال عبدالمؤمن: بمثل هذا يمتدح الخلفاء، فسمى نفسه خليفه من ذلك الوقت.

وبعد أن استقر به المقام، ولىَّ ابنه يوسف إشبيلية، وولىَّ غرناطة ابنه عثمان، كما ولىَّ باقي البلدان من يثق فيهم، ثم عاد إلى مراكش.

وفي عام ٥٥٧ هجريه، كتب إلى الأمصار يستحثهم على محاربة النصارى انطلاقاً من الأندلس، ونزل بمن معه في مدينة سلا فمرض هناك ومات، وكان قد عهد لابنه محمد بالأمر من بعده غير أنه كان مدمناً على الخمر، فأعجب من آمر بالمعروف يوليِّ حكم المسلمين مدمن خمر!!!

ربما يكون للنساء شأن في ذلك، ليظهر لنا أن عامل النساء وحب الولد كان من عوامل اندثار الوجود الإسلامي في الأندلس، أليست تلك مأساة؟

واختلف على محمد اختلافاً كبيراً، فقرر الفقهاء وأبناء عبدالمؤمن خلعه، فتم لهم ذلك بعد أن بقي في الحكم خمسة وأربعين يوماً، ورشح للخلافة اثنان من أبناء عبدالمؤمن هما يوسف وعمر، فآثر عمر أخاه على نفسه وبايعه، فبايع الناس.

obeikandl.com

يوسف بن عبدالمؤمن بن علي

أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن بن علي، أمه وأم أخيه أبي حفص امرأة حرة اسمها «زينب» كما يقول المراكشي، لم ينل من الموحدين ما ناله الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن من السلطان والملك وكان حكمه اثنتين وعشرين سنة.

عزم على دخول الأندلس لمزيد من الفتح فابتدأ بمرسية وبلنسية التي كان يحكمها في ذلك الوقت محمد بن سعد المعروف بابن مرديتش، وكان ابن سعد قد جلب الكثير من النصارى وأقطعهم ما كان يقطعه المسلمين من الأرض والمال بعد أن رأى عزوف الكثير منهم عنه لشقِّه عصا الطاعة، فقتل شر قتلة، فكانت الدائرة على محمد بن سعد.

ودخل الموحدون مرسية ثم سار الجيش إلى أشبيلية ومنها إلى مدينة يقال لها «وبذه» راغباً الاحتكاك مع الخصم القشتالي في الشمال فلم يمكنه ذلك، وهادن «الأدفنتش» كما تسميه المصادر العربية مدة سبع سنوات، وعاد إلى مراكش وقد انتصر على محمد بن سعد بينما عجز عن مقارعة القشتاليين.

بعد اثنتي عشرة سنة عبر البحر إلى الأندلس قاصداً مقاتلة القشتاليين فنزل بإشبيلية، ثم سار وحاصر مدينة شنترين فلم تستسلم وهمَّ بالرجوع، وتشاور في الأمر مع بعض جلسائه وفيهم المالقي، فأشاع الأمر لدى الجند دون اتخاذ الأمير قراراً نهائياً، فعاد بعضهم في جوف الليل، وبقي الأمير مع عدد قليل، فباغتهم جند القشتاليين، وطعنه أحدهم طعنة مات على أثرها بعد يومين، وساروا به إلى مراكش فأشاع عبدالرحمن بن عمر بن عبدالمؤمن أنَّ الخليفة أبا يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن قد عهد إلى ابنه يعقوب بالأمر من بعده، وتمت البيعة بسلا دون تثبت من حقيقة الوصية لذا كان له منافسون من إخوته وأبناء عمومته.

والحقيقة أن النتيجة النهائية ألاَّ جديد في استرجاع أرض من القشتاليين، وإنما مزيداً من القتل، لنيل مزيد من السلطة والنفوذ، وتولية الأبناء بغض النظر عن الشعار المرفوع.

obeikandl.com

يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن

تـولى الأمر يعقوب بن يوسـف بن عبدالمؤمن ويكنى بأبي يوسـف، وأمُّـهُ أم ولد رومية اسـمها «ساحر»، وكان عمره وقت توليه اثنين وثلاثين عاماً، ومدة حكمه ست عشرة سنة وثمانية أشهر.

استطاع الإمساك بزمام الأمور من خلال إغداق الأموال على منافسيه من إخوته وبني عمومته فمنحهم الإقطاعات الواسعة، وكان من فضائله بناء مدينة الرباط التي سبق أن اختطها والده من قبله وأتم بناء سورها، وبنى فيها مسجداً مازالت منارته العظيمة رمزاً من رموز هذه المدينة الجميلة حتى وقتنا الحاضر، وها أنا أسطر على ترابها هذا الكتاب حرسها الله من كل مكروه.

يمكننا إيجاز المآسي التي واجهت الخليفة يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن الذي تلقب بالمنصور بثلاث هي: ثورات أبناء ابن غانيه في الشرق المغربي، وقيام أخيه وعمه بمحاولة منازعته الحكم، وسـقوط شِـلْبْ الأندلسـية في يد القشتاليين ومن سـاعدهم من الألمان والإنجليز.

بـدأ بثـورات أبناء ابـن غانيه فكانت الدائـرة على الموحدين، ثم عاود الكرة بنفسـه بسـحقهم وإنهاء أمرهم ثم عـاد إلى الرباط، وبعد نزوله من دابته اسـتقبله أخوه وعمه أحسـن اسـتقبال ظانين أنه لم يبلغه مـا يبثونه من أقاويـل تقلل من شـأنه، فأمر بإلقاء القبض عليهمـا وتقييدهما ثم دفع بهما إلى مراكش وأمـر بقتلهما، فهابه جميع أقربائه الذين كانوا متهاونيين بأمره محتقرين له، لأشـياء كانت تظهر منه في صباه توجب ذلك، كما يقول صـاحب كتاب المعجب، ويبدو أن الأمر واضـح بما يعنيه صاحب المعجب لكنه لم يصـرح خشـية على نفسه لأنه معاصـر لتلك الحقبة، وجليس لأبي زكريا يحى بن يوسف بن عبدالمؤمن أحد إخوة يعقوب المنصور، ويؤكد ذلك قوله: وأظهر بعد ذلك أي بعد مقتل أخيه وعمه، زهداً، وتقشفاً، وخشونة ملبس ومأكل، وانتشر في أيامه للصالحين والمتبتلين وأهل علم الحديث صيت، وقامت لهم سوق، وعظمت مكانتهم منه.

وأما الأندلس فقد عبر إليها، بعد أن جَيَّشَ لها الجيوش، وأعد العدة عازماً استرداد شِلْبْ وما سُلِبَ من حصون، فسار بجيشه وحاصر شِلْبْ وحصون أخرى لكنه عاد بعد ثلاثة وأربعين يوماً إلى قرطبة دون تحقيق نصر يذكر، ولذا فيمكن القول أنَّها حملة فاشلة.

وقد ذكر المراكشي شيئاً عن مآل الكتب في عصره فقال: «وفي أيامه انقطع علم الفروع وخافه الفقهاء، وأمر بإحراق كتب المذهب بعد أن يجرد ما فيها من حديث رسول الله ﷺ والقرآن، ففعل ذلك، فأحرق منها جملة في سائر البلاد، كمدونة سنون، وكتاب ابن يونس، ونوادر ابن أبي زيد ومختصره، وكتاب التهذيب للبراذعي، وواضحة ابن حبيب، وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها، وقال المراكشي: «لقد شهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس يؤتى منها بالأحمال فتوضع ويطلق فيها النار، وتقدم إلى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأي والخوض في شيء منه وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة، وأمر جماعة ممن كان عنده من العلماء والمحدثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة: (الصحيحين، والترمذي، والموطَّأ، وسنن أبي داود، وسنن النسائي، وسنن البزار، ومسند ابن أبي شيبه، وسنن الدار قطني، وسنن البيهقي) في الصلاة وما يتعلق بها على نحو الأحاديث التي جمعها محمد بن تومرت في الطهارة، فأجابوه إلى ذلك وجمعوا ما أمرهم بجمعه، فكان يمليه بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظه، وانتشر هذا المجموع في جميع المغرب وحفظه الناس من العوام والخاصة، فكان يجعل لمن حفظه الجُعل السَّنِيَّ من الكِسا والأموال، وكان قصده في الجملة محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث، وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده، إلا أنهما لم يظهراه فأظهره يعقوب هذا، يشهد لذلك عندي ما أخبرني غير واحد ممن لقى الحافظ أبابكر ابن الجد، أنه أخبرهم قال: لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب أول دخلة دخلتها عليه وجدت بين يديه كتاب ابن يونس فقال لي: يا أبابكر، أنا أنظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله، أرأيت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا، فأي هذه الأقوال هو الحق؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد؟ فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك، فقال لي وقطع كلامي: يا أبا بكر، ليس إلا هذا، وأشار إلى المصحف، أو هذا وأشار إلى كتاب سنن أبي داود، وكان عن يمينه، أو السيف! فظهر في

أيام يعقوب هذا ما خفي في أيام أبيه وجده، وانتهى أمره معهم إلى أن قال يوماً بحضرة كافة الموحدين يسمعهم – وقد بلغه حسدهم للطلبة على موضعهم منه وتقريبه إياهم وخلوته بهم دونهم –: يامعشر الموحدين، أنتم قبائل، فمن نابه منكم أمر فزع إلى قبيلته، وهؤلاء – يعني الطلبه – لا قبيل لهم إلا أنا، فمهما نابهم أمر فأنا ملجأهم وإليَّ فزعهم وإلي ينتسبون! فعظم منذ ذلك اليوم أمرهم، وبالغ الموحدون في برهم وإكرامهم».

وحاول يعقوب المنصور استعادة شِلْبْ، فسار إليها وحاصرها، وضربها بالمنجنيق فاستسلمت، وعادت إلى المسلمين بعد أن بقيت في أيدي أعدائهم نحو عامين.

ومرض يعقوب المنصور مرضاً شديداً فنصحه الأطباء بالذهاب إلى فاس ففعل، وتنقل لنا بعض الروايات أنَّ أخاه أبا يحيى والي الأندلس من قبله تمنع في الذهاب إلى أخيه يعقوب المنصور لمقابلته، فاستحثه في المجيء، فتباطأ ظناً منه أنَّ أخاه سيموت بمرضه الذي أصابه، وبعد شفائه سار أبو يحيى إلى يعقوب المنصور، فعندما دخل عليه قيده ثم قتله، وجمع القرابة وأخذ مالهم وأخرجهم في أسوء حال، حفاة عراة الرؤوس.

وبعد فترة عبر يعقوب المنصور البحر إلى الأندلس في جيش كبير، وبعد أن علم بذلك أدفينتش جمع جيشاً ضخماً، وتراءى الجمعان، فقامت حرب كبيرة جداً سماها العرب وقعة الأرك، انتصر فيها المسلمون نصرا مؤزراً يساوي في قيمته المعنوية معركة الزلاقة.

هذه الأحداث جُلَّها لا يمكن وصفها بالمآسي، ويقال أنه وقع في يد يعقوب المنصور نحو أربعة وعشرين ألف أسير من أعدائه، منَّ عليهم وفك أسرهم، فرأى جنوده أنَّ هذه الفعلة سقطة من سقطات الملوك.

مأساة المسلمين مع يعقوب المنصور كانت من الناحية الفكرية بإدخال فكر جديد كانت له تبعاته الثقافية إلى جانب استغلاله استغلالا سياسيا، فقد كوَّن يعقوب المنصور حوله جمعا من التلاميذ سموا الطُلَبَه، وكان يرجع إليهم فيما يخص الأمور الدينية التي أسسها ابن تومرت، فأحرقت كتب الفلاسفة مثل ابن رشد والذهبي والمسهري وغيرهم. ونفوا من قرطبة إلى مدن أخرى، ويبدو أنَّ الأمر يتعدى الفكر إلى السياسة والمماحكة والصراع الخفي بين العلماء.

قال ابن رشد في أحد كتبه وهو يتحدث عن الزرافة: «وقد رأيتها عند ملك البربر»، فاستغل حسَّاده كلمة البربر، واتهموه بأنه يسمي الخليفة ملك البربر، أما محبوه فذكروا للخليفة أنها تصحيف لكلمة «برين» وأنه لم يقصد الخليفة، واستدعاه الخليفة إلى مراكش وأكرمه.

ومع أنه كان شديد الحذر من انتشار الأفكار المنافية للعقيدة إلا أنه كان سمحاً في معالجة أربابها، ومن رسائله إلى ولاته: «فاحذروا وفقكم الله هذه الشرذمة على الإيمان، حذركم من السموم السارية في الأبدان، ومن عثر له على كتاب من كتبهم، فجزاؤه النار التي يعذب بها أربابه، وإليها يكون مآل مؤلفه وقارئه ومآبه، ومتى عثر منهم على مجر في غلواته، عمَّ عن سبيل الله استقامته واهتداؤه، فليعاجل فيه بالتثقيف والتعريف، ولا تركنوا للذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون. أولا يرد الذين حبطت أعمالهم، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار، وحبط ماصنعوا فيها، وباطل ماكانوا يعملون. والله تعالى يظهر من دنس الملحدين أصفاءَكم، ويكتب في صحف الأبرار تضافركم على الحق واجتماعكم إنه منعم كريم».

والحقيقة أنه كان متسامحاً مع الفلاسفة إلا أنه لم يتسامح مع كتبهم ونهجهم.

وقيل أنه قال قبل أن يموت: «ما ندمت في حياتي إلا على ثلاث هي: إدخال العرب من أفريقية إلى المغرب لأني أعلم أنهم أهل فساد، والثانية: بناء رباط الفتح أنفقت فيه من بيت المال وهو بعد لا يعمر، والثالثة: إطلاق أسارى الأرك ولابد لهم أن يطلبوا بثأرهم».

وما أظنه إلا مخطئاً، أما العرب فكانوا له ناصرين، وأما الرباط فهي عامرة حتى الآن، وأما أسارى الأرك حتى لو قتلهم جميعاً فإن إخوانهم القشتاليين سيأخذون بالثأر.

وقد ألم به المرض ومات رحمه الله، وكتمت وفاته، ونقل رفاته إلى بلده.

محمد النـــاصر

ثم بويع ابنه محمد الناصر، وكان عمره سبع عشرة سنة، وقد اشتغل بحروب كثيرة في أفريقية، في حين بقيت الأندلس خالية من الحوادث المثيرة بعد معركة الأرك الشهيرة، وكان يحيط بمسلمي إسبانيا أربعة ممالك إسبانية هي أرجون، وقشتال، ليون، والبرتغال.

بعـد متابعة دقيقة للمتغيرات التي حدثت بالمغرب وانشـغال الموحدين بأفريقية، رأى القشتاليون أنَّ الوقت أصبح مناسباً لغنم ما يمكن غنمه من البلاد الإسلامية في الأندلس، وبدأوا بمضـايقة بعض الحصـون الإسـلامية التي ليس لديها غير عـدد قليل من الجند المكلفـين بحمايتها، واسـتغاث أهل الأندلس بمحمد الناصـر، فقرر الاسـتجابة لندائهم وسـار بجنده وعبر البحر ووصل إلى إشبيلية، بينما قام ملك قشتاله بجمع عدد كبير من الجند بمساعدة من البابا، وعدد من المتطوعين والجنود من فرنسا وألمانيا، واجتمعت في طليطلة، وتراءى الجيشـان في معركة كبيرة هزم فيها الموحدون هزيمة نكراء وقتل منهم ما لم تشهده معركة سابقة في التاريخ الأندلسي وتسمى بموقعة «العقاب».

يعـود ذلك إلى اهتـزاز الجيش الموحدي لاختلاف قلوب الموحديـن، وذلك أنَّهم كانوا على عهد أبي يوسف يعقوب المنصور يأخذون العطاء في كل أربعة أشهر، لا يحل ذلك من أمرهم، فأبطأ من مدة أبي عبدالله هذا عنهم العطاء وخصوصاً في هذه السفرة، فنسبوا ذلـك إلى الوزراء وخرجوا وهم كارهون كما يقول المراكشـي الـذي أردف قائلاً: «فبلغني عن جماعة منهم أنهم لم يسـلُّوا سـيفاً ولا شـرعوا رمحاً ولا أخذوا شيئاً في أهبة القتال، بل انهزموا لأول حملة الإفرنج عليهم قاصـدين ذلك»،كما أنَّ الخليفة محمد الناصـر قد قتل أحد قادة الأندلس البارزين وهو ابن قاديس قائد قلعة رباح وصهره، إلى جانب ذلك التعامل غير المثالي من قبل الوزير بن جامع مع قادة الجيش، كما أنه لم يصـغ لنصـائح قادة الأندلس الذين هم أكثر دراية بخطط القشتاليين ونقاط قوتهم وضعفهم، وقد بالغت الروايات العربية في عدد قتلى المسلمين فذكروا أنهم بلغوا خمس مئة ألف ومنهم من ذكر أنهم نحو مئة ألف، بينما المصادر الغربية تذكر مراوحتها من ثمانين ألفاً إلى مئة ألف.

كانت هذه المعركة أكبر مأساة حلت بالموحدين والمسلمين في الأندلس، فقد كان الموحدون السند الذي يلجأ إليه الأندلسيون عندما تضيق بهم الأحوال، والملجأ الذي يلجأون إليه بعد الله عندما تنزل بهم النوازل، وإذا بهذا الصرح ينكسر كسراً لا جبر بعده. قال إبراهيم الدباغ الإشبيلي:

وقائلة: أراك تطيل فكراً ... كأنك قد وقفت لدى الحساب
فقلت لها: أفكر في عقاب ... غدا سبباً لمعركة العقاب
فما في أرض أندلس مقاماً ... وقد دخل البلا من كل باب

وقال المقري في نفح الطيب: «فإنه جمع جموعاً اشتملت على ستمئة ألف مقاتل، ودخله الإعجاب بكثرة ما معه من الجيوش، فصاف الإفرنج، وكانت عليه وعلى المسلمين وقعة العقاب المشهورة التي جلى بسببها أكثر العرب، واستولى الإفرنج على أكثر الأندلس بعدها، ولم ينج من الستمئة ألف مقاتل غير عدد يسير جداً لم يبلغ الألف فيما قيل، وهذه الواقعة هي الطامة على الأندلس بل والمغرب جميعاً، وما ذاك إلا لسوء التدبير، فإن رجال الأندلس العارفين بقتال الإفرنج استخف بهم الناصر ووزيره فشقَّ بعضهم، ففسدت النيات، فكان ذلك من بخت الإفرنج، والله غالب على أمره، وكانت وقعة العقاب هذه المشؤومة سنة ٦٠٩ هـ، ولم تعد بعدها للمسلمين قائمة تحمد».

مأساة حقيقية عظيمة مادياً ومعنوياً اسمها موقعة العقاب، فكانت عقابا في عهد الموحدين لكل ما فعله الأندلسيون والمرابطون والموحدون، في عصر محمد الناصر الذي ليس له من لقبه نصيب، فحلَّ به العقاب في معركة العقاب وجرَّ على المسلمين بسوء تدبيره كارثة كبيرة تعتبر أكبر الكوارث في الأندلس على الإطلاق، فسوء التدبير، وغياب الحكمة رغم وجود العدد والعدة، أساس البلاء، ومصدر الهوان، وخسارة الأنفس والعمران.

فرَّ محمد الناصر من المعركة، ولجأ إلى إشبيلية ومنها إلى المغرب، وولى ابنه يوسف ولاية العهد رغم أنه كان منصرفاً عنه في بداية حياته، ثم احتجب عن الناس وانغمس في لذاته، فأقام فيه مصبحاً مغتبقاً، ويبدو أنه أصيب بصدمة نفسية جعلته يهرب من الواقع، وهذا ليس طريق المؤمنين الشجعان.

يوسف المستنصر

مات محمد الناصر من عضة كلب، أو مسموماً، أو حتف أنفه حيث اختلف في ذلك الرواة، وتولى ابنه الشاب يوسف المستنصر البالغ من العمر ست عشرة سنة الأمر بعده، وكانت أمه رومية اسمها «قمر» وتلقب «حكيمه»، قال عنه ابن خلكان: «إنه وسيم، حسن القد، جميل المحيا، صافي السمرة، شديد الكحل، ولم يكن في بني عبدالمؤمن أحسن وجهاً منه».

وهل الأمة الإسلامية في المغرب والأندلس، وبعد هزيمة ساحقة تبحث عن قائد ليس له من الصفات إلا الوسامة ؟

إنها مأساة الأندلس والأندلسيين التي حلَّت بهم على يد الموحدين.

كان يوسف المستنصر مولعاً بالراحة، فكانت زمام الأمور بيد وزير أبيه والأشياخ الأوصياء، وظل حكمه عشر سنوات لكن معظمها دعة وهدوء.

قال عنه ابن خلدون: «فنصبه الموحدون غلاماً لم يبلغ الحلم، وشغلته أحوال الصبا وجنونه عن القيام بالسياسة وتدبير الملك، فأضاع الحزم وأغفل الأمور، وتواكل الموحدون بما أرضى لهم من طيل الدالة عليه».

وقال مؤلف روض القرطاس: «وكانت أوامره لا تتمثل أكثرها لضعفه وليانه، وإدمانه على الخلاعة، وركونه على الملذات، وتفويضه أمور مملكته ومهمات أموره إلى السفلة». قال أيضاً: «أنه كان شاباً كثير اللهو، وكان من هواه أن يرعى الأبقار ويحاول ترويضها، فبينما هو ذات يوم يحاول أن يروض بعض أبقاره هجمت عليه بقرة شموس وضربته بقرانها، فأصابت قلبه وكذلك كانت منيته».

obeikandi.com

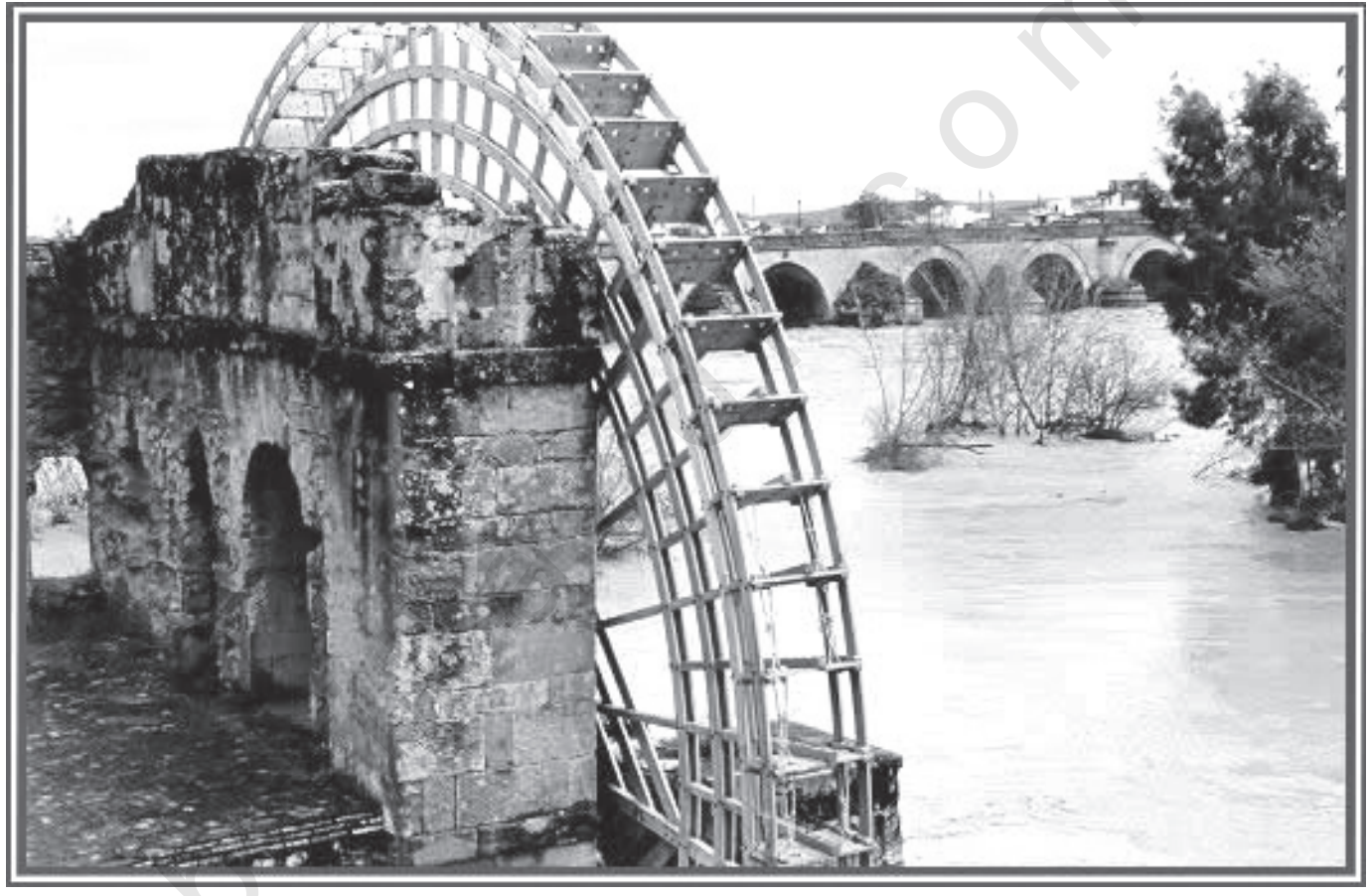

طاحونة ماء بمدينة غرناطة استخدمت لامتداد السكان بحاجياتهم من المياه